المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الاربعون

١ مايو (ايار) سنة ١٩١٢ — الموافق ١٣ جماد اول سنة ١٣٣٠

وليم ستد

W. T. STEAD

رجل والرجال قليل . كاتب من اكبر كتّاب العصر وفارس متواز يصول بقلمه فيؤيّد الحقائق ويزهق الاباطيل . يحامي الخصوم ثلثات يراعه ويلجأ المستضعفون الى حمى بنانه . قضى بحادث كارث ذهب فيه الف وستمائة ونيف شهداء الشهامة والايثار . وقضى معهُ كثيرون من اغنى اغنياء العصر وارسعهم جاهاً ولكن مصيبة الناس كانت بفقدهِ اعظم لما لهُ من الشهرة الواسعة والنفع العميم . ومَن من ادباء هذا العصر لا يعلم اسم ستد ومجلة المجلات الانكليزية وهو وشي من اعظم اركان مؤتمر السلم ومن اقوى نصراء الفضيلة على الرذيلة والحرية على الاستبداد

لقيناهُ اول مرة في باريس منذ اثنتي عشرة سنة فسحرنا بسعة اخبارهِ وحسن بيانهِ وفكاهة حديثهِ وميلهِ الشديد الى المشارقة والى كل امّة تبغي النهوض وتلقى من المتسلطين بضعها العوائق . وكان هذا دأبهُ من حين شبَّ الى ان فارق هذه الحياة الدنيا . وكنا قد استأجرنا بيتاً في باريس فتكرّم بزيارتنا مراراً على كثرة مشاغلهِ واهدى الى كبرى بناتنا صورتهُ وكتب عليها من « ستد صديق انكلترا الى مدموازل صروف صديقة فرنسا » وعنها نقلت الصورة المرسومة في صدر هذا الجزء . ولما فاجأتنا الخبر بغرق الباخرة التي كان فيها كتب شكر في كتابة كتاب لهُ عن السلم وما عقّبنا بهِ على خطبة كارنجي التي نشرها في مجلتهِ وترجمناها في المقتطف منذ ست سنوات لعلَّهُ يرى رأينا ويضم صوتنا الضعيف الى صوتهِ . ثم ثبت انهُ ليس بين الناجين فغيبَّهُ اليم وهو في الثالثة والستين ممتلئاً قوةً واختباراً . وجاءتنا جريدة التيمس وفيها ترجمة وجيزة لهُ فاعتمدنا عليها في ما يلي من السطور

ولد سنة ١٨٤٩ وكان ابوهُ قسًّا من قسوس الكنيسة الجمهورية وتعلَّم في مدرسة يتعلَّم فيها اولاد القسوس ولما صار لهُ من العمر اربع عشرة سنة أُخرج من المدرسة ووضع عند تاجر فارتقى الى ان صار تاجرًا كاتبًا. وكان للتاجر معاملات مع روسيا فكان ذلك اساس الاهتمام الذي بدا من ستد بعد ذلك بامر الروس. والمعلم الحقيقي الذي علَّمهُ هو ابوهُ ونفسهُ وكان برًّا بوالديهِ ومعجبًا بمن يعجب بهِ اهل شيعتهِ وهو كرومول المشهور. وكان يقول بعد ذلك ان اعظم مدح مُدح بهِ هو قول الكردينال متنغ لهُ « اني كلما قرأت البال مال ظهر لي كأن اولفر كرومول قد بُعث ». وكان يعطى ثلاث بنات في الاسبوع لينفقها كما يشاء فيعطي واحدةً منها للكنيسة ويشتري بالاثنين الباقيين روايتين من روايات شكسبير ومن ثمَّ ابتدأ ميلهُ الى فنون الادب. والظاهر انهُ عدَّ نفسهُ من ذلك الحين مدعوًّا لاصلاح ما اعتور الهيئة الاجتماعية من الخلل. فقد كان يروي ان اباهُ قال لهُ ذات يوم « خير لك يا وليم ان تترك هذا العالم لله احيانًا ليديرهُ كما يشاء ». وقد قال مازحًا ان هذا بقي اعتقادهُ حتى انهُ جعل عنوانهُ التلغرافي في لندن « القائيكان »

وكان في حداثتهِ يكاتب جريدة الصدى الشمالي (نرذرن أكو) فدعي الى تحريرها وعمرهُ اثنتان وعشرون سنة لان اصحابها رأوا في الرسائل التي كان يبعث بها اليهم بلاغة فائقة ومقدرة غير عادية. فتهيَّب هذا المنصب ولعلهُ لم يتهيب منصبًا آخر بعدهُ لكنهُ اقدم عليهِ فنجح نجاحًا مبينًا. وطُرحت المسألة الشرقية على بساط البحث حينئذٍ وقام غلادستون يندد بالفظائع البلغارية فانضمَّ الى القائلين بهذا الامر وجاء مدينة لندن ليكون على مرأى منهُ ومسمع ولتي كارليل يجعل كارليل يقول عنهُ « ذلك الرجل الصالح ستد ». وصادق القائلون لندن وصارت جريدتهُ لسان حال القائمين بالدعوة ضد الفظائع البلغارية في شمالي انكلترا والمنتصرين لمذهب الاحرار فعرف لهُ زعماء ذلك الحزب هذا الجميل. ولما تولى المستر مورلي تحرير جريدة الديلي نيوز سنة ١٨٨٠ جعلهُ مساعدًا لهُ في تحريرها فملكا ناصيتها ومذهبها السياسي ثلاث سنوات متوالية مورلي بقوة حجتهِ الفلسفية وستد بشدة عارضتهِ الخطابية. كان مورلي يدير سياسة الجريدة ويتولَّى اكثر مقالاتها الافتتاحية وستد يهتم بانشاء باقيها ويدير سائر شؤونها وهو كثير الابتكار صادق العزيمة « عنيد لا يقهر » كما قال عنهُ مورلي لكن مورلي ليِّن طباعهُ وبث فيهِ من روحهِ حتى ان مقالات كثيرة حُسب ان مورلي كتبها والكاتب لها هو ستد

واعتزل مورلي رئاسة التحرير سنة ١٨٨٢ فخلفهُ ستد واقام ست سنوات وهو يدير

شؤون الامبراطورية البريطانية من مكتبهِ كما كان يقول. ولا شبهة في انهُ جعل جريدة البال مال شأناً سياسياً عظيماً في الامبراطورية بل جعلها قوةً سياسية فيها واليهِ ينسب ارسال غوردون الى السودان فانهُ هو الذي اشار على نظارة الخارجية بارسالهِ واضطرها الى ذلك بعد ان قابل غوردون وذاكرهُ في هذا الموضوع ونشر حديثهُ معهُ. وسنأتي على تفصيل ذلك في فرصة اخرى

وكان مذهب ستد السياسي في ذلك الحين توسيع الامبراطورية البريطانية ولكنهُ كان يطلب ان يعطى الاستقلال الاداري لكل قسم من اقسامها. فقد سبق غلادستون الى ذلك ولكنهُ طلب ايضاً ان يكون للامبراطورية مجلس نيابي عامٌ اعضاؤهُ من اقسامها المختلفة فلما رأى لامهُ غلادستون تخرج الاعضاء الارلنديين من المجلس الامبراطوري خالفهُ بعد ان وافقهُ

وذهب ايضاً الى وجوب تقوية العمارة البحرية ونشر عنها ما يدلُّ على ضعفها فاضطرَّ الوزارة الى زيادة النفقات لتقويتها

ثم نبَّه الى مسألة الرقيق الابيض والمتاجرة بالاعراض. وكان امام البارلمنت مشروع قانون لمعاقبة الاثمة في هذا الباب وخيف من رفض النواب لهُ فعزم ان ينصرهُ باهاجة الراي العام الى استنكار تلك الفجائع. وامرَّ بما اراد الى رئيس اساقفة كنتربري واسقف لندن ورئيس اساقفة وستمنستر ولورد دلمومي لكي يكونوا شهوداً على حسن نيتهِ. ثم جمع الادلة والشواهد ونشرها على رؤوس الاشهاد غير محاذر لكي تقوم قائمة الامة كلها وتضطر مجلس النواب الى سن ذلك القانون. فقام عليهِ الذين اغشى ابرهم ورفع امرهُ الى القضاء لانهُ لا يجوز لهُ ان يندد بالعيوب جهراً ولو كانت صحيحة. واتفق ان رجلاً من الذين كان يعتمد عليهم في جلب الاخبار اختطف ابنة صغيرة وعرضها لبعض واقع ستد ان والدها باعاها فاتهم ستد بالاشتراك معهُ في اختطافها. وشهد الرجال المذكورون زوراً بحسن نيتهِ لكن المحكمة حكمت عليهِ بالسجن ثلاثة اشهر. وظل يحرر جريدتهُ من السجن وبقي سنين كثيرة بعد ذلك يعيّد ليوم دخولهِ اليهِ. الاَّ ان القانون سُنَّ كما اراد وبُذلت المساعي من ذلك الحين في كل البلدان المتمدنة لمنع ما يسمَّى بتجارة الرقيق الابيض

وهذه الخطة خطة التشهير باهل الشر اقامت عليهِ كثيرين من الاعداء كما اقامت لهُ كثيرين من الاصدقاء وصيَّرت ادارة جريدتهِ ملجأً لكل الذين في قلبهم سواء استحقوا ان يعطف عليهم او لم يستحقوا. واستمر سنة ١٨٨٩ من تحرير البال مال وانشأ مجلة المجلات

فاستقل في ابداء آرائه وجعل يخاطب الناس في مشارق الارض ومغاربها على صفحات مجلته . ولولا تشيُّعهُ لشاعة الارواح لكان تأثيرهُ السياسي اعظم مما هو جدًّا لكن هذا التشيع اكسبهُ من الاتباع والمريدين قدر ما خسَّرهُ منهم

ومن المسائل السياسية التي اشتغل بها ازالة سوء التفاهم بين انكلترا وروسيا . وقد زار روسيا لهذا الغرض وقابل الامبراطور اسكندر الثالث ثم زارها مرة اخرى سنة ١٨٩٨ وقابل الامبراطور الحالي . ومن النوادر التي حدثت حينئذٍ انهُ بعد ان حادث الامبراطور طويلاً قال لهُ انهُ لا يريد ان يعيق جلالتهُ اكثر من ذلك وهمَّ بالخروج . فصاحَ القيصر وهو يقول باسمًا هذه اول مرة صُرفت فيها من مقابلة . وعلى اثر هذه المقابلة جعل ستد ينادي بوجوب السلم ومنع الحرب وانشأ جريدة اسبوعية سماها « بحارية الحرب » وحضر مؤتمرات السلم في هولندا وانصرف بكليتهِ الى وجوب التحكيم في الخصومات الدولية . ولعلَّ ذلك كان السبب في قيامهِ ضد حرب البوير ومخاصمتهِ لكثيرين من اصدقائهِ بسببها مثل لورد ملنر الذي كان قبلاً مساعدًا لهُ في تحرير اليال مال وسس رودس الذي كان بيت ستد مباءة لهُ كلما جاء لندن . وستد هو الذي اشار عليهِ بكتابة وصيتهِ على الصورة التي كتبها بها وكان رودس عازمًا ان يقيمهُ على تنفيذها وحدهُ

وحاول ان ينشئ جريدة يومية فاخفق لكثرة نفقاتها ولانهُ جرى فيها على اسلوب غير مألوف لكنهُ انشأ مجلة مجلات اميركية فنجحت نجاحًا تامًّا . وكان غزير المادة فاذا جُمع ما كتبهُ في مجلتهِ وغيرها من الجرائد والمجلات ملأ مجلدات كثيرة . وكتاباتهُ كثيرة الملح والنوادر وعبارتهُ رشيقة وتقدهُ ألم لا يراعي فيهِ صغيراً ولا كبيراً . واخص ما يوصف بهِ التنويه بما يحسبهُ حقًّا والتشهير بما يعدهُ باطلاً . ولما تمَّت احدى وعشرون سنة على مجلة المجلات في اول العام الماضي كتبت اليهِ الملكة الكسندرا وكتب كثيرون من الامراء والعظماء وللعلماء يهنئونهُ ببلوغها ذلك العمر ويتوهون بفضلها عليهم

ولما اثارت ايطاليا الحرب على دولتنا العلية رشقها بسهام الملام وبذل وسعهُ في حمل الدول على التوسط في الصلح وحمَّل ايطاليا على رفع شكاويها الى مؤتمر التحكيم وجاء الاستانة لهذه الغاية ولكن اخفق مسعاهُ . وقد فجع ببكرهِ منذ عهد غير طويل وكان سارًّا في خطتهِ وناجحًا على متوالهِ فاعتقد انهُ لا يزال قريبًا منهُ يخاطبهُ من عالم الارواح

وسلامة نيتهِ وكرم اخلاقهِ وتفانيهِ في خدمة ابناء نوعهِ كان محبوبًا مكرَّمًا من الجميع فلا عجب اذا كان الاسف عليهِ شديداً والمصاب فيهِ كبيراً